بلاغة الحذف التقابلي بالاحتباك
في التعبير القرآني ودوره
في تحقيق التماسك النصّي

المدرس الدكتور
عدنان عبد السلام الأسعد
جامعة الموصل ـ كلية التربية للبنات

بلاغة الحذف التقابلي بالاحتباك في التعبير القرآني ودوره في تحقيق التماسك النصّي

المدرس الدكتور
عدنان عبد السلام الأسعد
جامعة الموصل ـ كلية التربية للبنات

التمهيد:

بين يدي العنوان البلاغة: وضع علماء البلاغة - قديماً وحديثاً - تعريفات عدّة لمصطلح البلاغة، وقد تنوعت تعريفاتهم وتعددت ولعلّ أوضحها وأقربها تعريف الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) إذ قال: "**بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته**"(١).

الاحتباك لغة: من الحبك ومعناه شَدُّ الإزار، وكل شيءٍ أحكمته وأحسنت صنعه فقد احتبكته. "الشدُّ والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب"(٢)، وجاء في اللسان: " الحبك الشدُّ، واحتبك بإزاره: احتبى به وشدَّه إلى يديه، والحبكة أن ترخي من أثناء حجزتك(٣) من بين يديك لتحمل فيه الشيء ما كان، وقيل الحبكة: الحجزة بعينها ومنها أُخذ الاحتباك بالباء وهو شدُّ الإزار"(٤).

أما اصطلاحاً: عُرِفَ الاحتباك عند العلماء بأكثر من اسم، وعرفوه بأكثر من تعريف، فقد عُرِفَ عند الزركشي (ت٧٩٤هـ) بالحذف المقابلي وعرفه بقوله: " هو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من كلٍّ واحدٍ منهما مقابله لدلالة الآخر عليه"(٥)، وذكره علي الجرجاني (ت٨١٦هـ) باسم (الاحتباك) وورد عنده بكلام الزركشي نفسه(٦)، وكل من جاء بعد الجرجاني سماه (الاحتباك)،وقال عنه البقاعي - رحمه الله - (ت٨٥٥هـ) في أحد المواضع:

"أن يؤتى بكلامين يحذف منهما شيءٌ إيجازاً، يدل ما ذكر على ما حذف من الآخر"[٧]، وذكره السيوطي(ت٩١١هـ) في تعريفه بأنَّه: "أن يحذف من الأول ما اثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما اثبت نظيره في الأول"[٨]، **ومما تقدم يمكن أن نستخلص الرابطة المعنوية بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للاحتباك وهو ذلك المعنى المشترك من الترابط والتراص والتداخل بين الأجزاء المتباعدة.**

التماسك النصي: التماسك النصي من أبرز مباحث علم اللغة واللسانيات النصية الحديثة التي نالت عناية كبيرة من العلماء، فهو يُحدث علاقة بين مكونات النص الواحد، بحيث يصبح نسيجاً واحداً، تتحقق فيه علاقات القصد والخلفية المعرفية. ومعنى التماسك في اللغة ضد التفكك ويدور حول معنى الترابط والشدة والصلابة والمتانة. أما اصطلاحاً فالتماسك في علم اللغة الحديث يعني التلاحم بين أجزاء النص الواحد، بحيث توجد علاقة بين كل مكون من مكونات النص وبقية أجزائه، فيصبح نسيجا واحدا، تتحق فيه علاقات القصد والخلفية المعرفية بالمبدع والمتلقي[٩].

ثانياً. شروط الحذف التقابلي بالاحتباك:

لابدّ للاحتباك من شروط وضوابط تسوغه منها ما هو عام ومنها ما هو خاص بالاحتباك فمن الشروط العامة للحذف التي ينبغي توفرها في الاحتباك:

١- أن يدعو إليه داعٍ بلاغي يجعل الحذف ابلغ من الذكر.

٢- أن يكون في الكلام بعد الحذف دليلٌ على المحذوف[١٠].

أما الخاصة بالاحتباك:

١- وجود متقابلين في كلٍّ من الجملتين في الكلام.

٢- حذف من كلتا الجملتين ما اثبت في الأخرى.

٣- دلالة ما بقي على ما حذف من الأخرى.

ثالثاً. بلاغة الحذف التقابلي بالاحتباك:

يمتاز القرآن الكريم بأساليبه الفنية المعجزة ومن هذه الأساليب الحذف التقابلي بالاحتباك، ولغة القرآن هي العربية واللغة العربية هي أكثر اللغات إيجازاً، وبما أنَّ الاحتباك هو ضربٌ من إيجاز حذف، فلابد من فوائد بلاغية لهذا الفن؛ وذلك لأنَّ الإيجاز من أكثر الأساليب دقة وحكمة، وأحسنها بلاغة، وأغزرها معنىً، ونستطيع أن نحدد بعض هذه الفوائد البلاغية والدواعي التي يحققها في التعبير القرآني، ومنها:

١- الحذف التقابلي بالاحتباك مظهر من المظاهر الأسلوبية التي تدخل في صميم البناء اللغوي للنص.

٢- إحكام النظم بحذف فضول الكلام وما يمكن الاستغناء عنه، مع قلة الألفاظ وكثرة المعاني التي تدل عليها، وهذه هي غاية البلاغة المتمثلة في استثمار اقل ما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني[١١].

٣- ومن دواعيه أيضاً الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره، والتنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم[١٢].

٤- تحقيق فضيلة الإيجاز، وسرعة الوصول إلى الأمر المطلوب، فاستخدام الحذف التركيبي يعطي دلالات أوضح، ويكون ذا أثرٍ بالغ في إيصال المعنى.

٥- تنبيه المتلقي الى البحث عن المحذوف، فيجعله يتجاوب مع ما يقرأ، فترسخ المعلومة في نفسه ويقل نسيانه، وهذا مطلب من مطالب الحذف في القرآن الكريم.

٦- تهذيب العبارة؛ لأنَّ المعنى الذي يدركه الفهم إدراكاً قوياً مع حذف الألفاظ الدالة عليه يكون في ذكرها فضولٌ يتنزه عنه البيان الحكيم.

٧- صيانة الكلام من الثقل والترهل اللذين يحدثان من ذكر ما تدل عليه القرينة(١٣).

٨- ومن بلاغته أيضاً في الكلام ما يقتضيه السياق من التعظيم أو التشويق أو التحقير.

رابعاً. الحذف التقابلي بالاحتباك والتماسك النصي:

لعل الإمام جلال الدين السيوطي يُعد من أوائل من أشار إلى دور الاحتباك في التماسك النصي بقوله: "مأخذ هذه التسمية من الحبك الذي معناه الشد والأحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب فحبك الثوب سد ما بين خيوطه من الفرج وشده وإحكامه بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق وبيان أخذه منه من أن مواضع الحذف من الكلام شبهت بالفرج بين الخيوط فلما أدركها الناقد البصير بصوغه الماهر في نظمه وحوكه فوضع المحذوف مواضعه كان حابكا له مانعا من خلل يطرقه فسد بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه من الحسن والرونق"(١٤).

فعند سماع لفظ (احتباك) لأول وهلة يتراءى للذهن تلك الصورة من تداخل خيوط نسج الثوب أو قطع القصب مع بعضها وتفاوتها عن بعضها، كما توحي اللفظة بتراص الخيوط مع بعضها بحيث تندثر بينها الفرج التي تبدو عند عملية النسج البدائية، من خلال سحب هذه الخيوط بأصابع اليد، فهو عملية نسج من غير ترك فروج بين الخيوط او قطع القصب او مما ينسج منه.

وبوصف الاحتباك من الحذف فهو من أكثر عناصر التماسك النّصّي شيوعاً وهو " اعتداد بالمعنى العدمي على ما يسمونه"*Zero Morpheme*

فالبنيات السطحيّة في النصوص غير مكتملة غالباً بعكس ما قد يبدو لمستعمل اللّغة العادي، ففي قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ لا مفرّ من فهم (شهد الملائكة وشهد أولو العلم) بدليل ما في آخر الآية من قوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ولولا هذا الفهم لجعلنا الملائكة وأولي العلم آلهة مع الله سبحانه وتعالى"[١٥]. وإعمال الذهن في البحث عن المحذوف وتقديره وبيان مرجعيّته يؤدّي إلى التماسك النّصّي. ويرى صبحي إبراهيم الفقي أن التماسك بالحذف يتحقق عبر عدة جوانب:

١- تكرار اللفظ نفسه بعد إعادة المحذوف.

٢- المرجعية المتحققة بين الشطرين.

٣- وجود دليل على المحذوف [١٦].

فالحذف علاقة استبدال من "النقطة صفر" أو اكتفاء بالمبنى العدمي كما يسميه دي بوجراند. فعن طريق إرجاع المحذوف تتحقق الإحالة القبلية الداخلية، ويظهر التكرار، ويظهر التماسك على مستوى أكثر من جملة، وتظهرأهمية الدليل المذكور، فعن طريق هذا الدليل يستطيع القارئ ملء الفراغ [١٧].

الحذف التقابلي بالاحتباك في القرآن الكريم ودوره في تحقيق التماسك النصي:

الاحتباك في القرآن الكريم أمثلته كثيرة وأنواعه متعددة، وهذا التنوع والاختلاف يرجع إلى تقدير المحذوف، والمحذوف نفسه يفهم غالباً من السياق أو بوجود قرينة تدل عليه، ومن خلال دراستنا للاحتباك، وتقدير المحذوف، ومن خلال كلام العلماء وتعاريفهم له يمكن أن نقسم الاحتباك إلى خمسة أقسام، الأول اصطلحنا على تسميته بـ (الاحتباك الضدي)، والثاني(الاحتباك المتشابه)، والثالث (الاحتباك المتناظر)، والرابع (الاحتباك المنفي المثبت)،

والنوع الخامس هو (الاحتباك المشترك)، وفيما يأتي بيان وتفصيل لهذه الأنواع:

المبحث الأول

الحذف التقابلي بالاحتباك الضدي

هو الذي يقع بين ألفاظٍ العلاقة بينها قائمة على التضاد، والضدّ كما يقول ابن السكيت: "خلاف الشيء"[١٨]، والضدُّ هو كلُّ شيءٍ تضادد مع الآخر بحيث لا يجتمع معه في وقتٍ واحد، ونحن أطلقنا هذا الاسم على هذا النوع من خلال كلام العلماء عند تعليقهم على الآيات التي فيها احتباك بين ألفاظٍ متضادة. ومن خلال هذا العرض اليسير يمكن القول أنَّ الاحتباك الضدي: هو أن يؤتى بكلامين في كلٍ منهما متقابلان متضادان لما في الأخرى،فيحذف من الأول ما أُثبِتَ ضده في الثاني ومن الثاني ما اثبت ضده في الأول، ويدل ما ذكر على ما حذف في كلٍ منهما.

ويعد هذا النوع من أغنى أنواع الاحتباك دلالة - لما يضفيه التضاد من عمقٍ في المعاني - ومن أكثرها وروداً في القرآن الكريم، وفيه يظهر حسن التقابل بين الألفاظ المذكورة والمحذوفة فبضدها تتميز الأشياء كما يُقال، ونعني بالألفاظ المتقابلة بالضدية، أي بين لفظة وضدها - معنىً ودلالة - بين الأسماء والأسماء، والأفعال والأفعال، مثل (الجنة والنار) و(يؤمن ويكفر)،، وغيرها من الألفاظ الواردة في الآيات القرآنية، وسنتناول عدداً من هذا النوع بالتحليل والدراسة لنبين بلاغته ودوره في تماسك النص القرآني، وحسن موقعه في الكلام.

ومن شواهده [١٩] في التعبير القرآني قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي

﴿ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٣). نزلت هذه الآية رداً على اليهود عندما جمعهم رسول الله ﷺ، بعد غزوة بدر وحذرهم من أن يصيبهم ما أصاب مشركي قريش يوم بدر، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً[٢٠] لا علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس، فنزلت[٢١].

والفئتان في الآية هما المسلمون ومشركو مكة، وقد ذكر في جانب المسلمين إنهم يقاتلون (في سبيل الله)، وفي جانب المشركين أنها (كافرة)، فلم يأت النظم الكريم بين لفظتين متقابلتين تماماً فلم يقل: فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى تقاتل في سبيل الطاغوت، ولا فئة مؤمنة وأخرى كافرة، بل قال الحق: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ ، فوقع بهذا حذف من الطرفين على سبيل الاحتباك. قال أبو حيان: "حذف من الأولى ما اثبت مقابله في الثانية، ومن الثانية ما اثبت مقابله في الأولى، فذكر لازم القتال وهو (القتال في سبيل الله)، وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان وهو الكفر"[٢٢]. فذكر الكافرة في الثانية أفاد بان الفئة الأولى مؤمنة، وبقوله: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أن الأخرى تقاتل في سبيل الطاغوت[٢٣]. وإذا أخذنا بأقوال العلماء، ووضعنا المحذوف موضعه في الكلام نجد بأن الآية تصبح متقابلة تقابلاً تاماً بين ألفاظها، ويكون تقدير الآية الجليلة:

قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله

وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت يرونهم مثليهم رأي ....

وبهذا التقدير أسهم الحذف التقابلي بالاحتباك في تماسك النص القرآني، إذ ربط البنية السطحية بالبنية العميقة، وتكن بلاغته وجماليته بأنه ذكر أولاً لازم الإيمان وهو (القتال في سبيل الله)، وحذف مؤمنة مدحاً لهم، لان المسلمين كانوا في أعلى درجات الإيمان حينها، ومدحاً لهم كذلك بما يليق

بالمقام ورمزاً إلى الاعتداد بقتالهم، ووصفت الأخرى بـ(الكافرة) ملزوم القتال، بغير الصفة التي وصفت بها الفئة الأولى إسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار وتحقيراً لهم[٢٤]. وثمة لطيفة بلاغية أخرى وقعت في نظم الآية في(وأخرى كافرة) ولم يقل (وفئة كافرة) إشعاراً بأن الطائفتين ليستا متساويتين، وإهمالا للثانية وتصغيراً لشأنها.

ومن شواهده أيضاً مقابلته عز وجل بين نعمتي الليل والنهار وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (يونس: ٦٧).

تتجلى في هذه الآية نعمتان من نعم الله تعالى على بني ادم، وهما نعمتا الليل والنهار، فالليل للسكن والراحة بعد الجهد والتعب الذي يحصل بسبب الانتشار والعمل في النهار، فهما من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، ولولاهما لعدمت الحياة.

والآية تقابل بين الليل والنهار، لكن أتى في جانب الليل بالفعل فقال ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، وفي جانب النهار بالاسم (مبصراً)، فلم يأت التقابل متساوياً ومتماثلاً، فلم يقل: الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه، ولا... الليل مظلماً والنهار مبصراً، إنما جاء النظم الكريم بواحدة من هاتين وواحدة من الأخرى فقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، فحصل بذلك احتباك إذ حذف من جانب الليل أولاً لفظ (مظلماً) لدلالة ضده عليه في الثاني وهو (مبصراً)، وحذف من الثاني (لتنتشروا فيه ولتبتغوا من فضله) لدلالة الأول عليه وهو (لتسكنوا فيه)، فذكر علة خلق الليل وهي (السكن والراحة)، وحذفها من النهار، وذكر وصف النهار وهو (مبصراً) وحذفه من جانب الليل، وكل من المحذوف يدل عليه مقابله[٢٥]،

وعلى هذا يكون تقدير الآية:

هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه

والنهار مبصراً لتنتشروا فيه ولتبتغوا من فضله

ولا تخفى جمالية هذا الحذف بالاحتباك ودوره في تماسك النص القرآني من خلال طريقتين إحداهما: طريقة الاختصار إذ تستخدم أقل العبارات لتوضيح المقصود، والأخرى طريقة البسط إذ تلجأ إلى توسيع الجملة الأولى - بؤرة النص - لتكوّن سلسلة من الجمل المتماسكة.

فضلاً عن أن في هذا الاحتباك إحكام للنظم بحذف فضول الكلام وما يمكن الاستغناء عنه، مع قلة الألفاظ وكثرة المعاني التي تدل عليها، وهذه هي غاية البلاغة المتمثلة في استثمار اقل ما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني. وفي التعبير في جانب الليل بقوله (لتسكنوا فيه) دون مظلماً، لأنه فضلاً عما يدل عليه هذا الوصف من هدوء الليل وسكونه، وما يبثه التعبير من راحة نفسية بعد التعب في النهار، فإن الليل أصبح هو المسكن، والزمان صار مكاناً للسكن والراحة، وهذا واضحٌ لاسيّما مع استخدام الحرف (في) الدال على الظرفية،الذي يوحي بهذه الظلمة الساكنة التي تحيط بهم من كل جانب ليعم المكان والزمان سكون من الظاهر والباطن، وكأن الليل قبة ضربت على ساكنيها وأحاطتهم بظلامه[٢٦]. وفي إسناد الإبصار إلى النهار مجاز عقلي، علاقته زمانية أو سببية، لأنه زمن الإبصار أو سببه، وأفاد هذا الاختصار والإيجاز التفخيم.

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤) هذا مثل ضربه الله تعالى في وصف الكلمة الطيبة وهي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، فشبهها سبحانه

وتعالى بالنخلة[٢٧]، وهي تلك الشجرة الطيبة العالية في السماء، ووصفت هذه الشجرة بأن أصلها ثابت وفرعها في السماء، إذ ذكر مع الأصل الثبات واضمر مكانه (في الأرض)، وفي جانب الفرع ذكر مكان الارتفاع وحذف (العلو والصعود)، فوقع بهذا المثل احتباك، إذ أنه حذف من الأول الأرض لدلالة ضده عليه في الثاني وهي السماء، وحذف صاعداً وعالياً ثانياً لدلالة ضده عليه في الأول وهو ثابت - التي توحي بثبات جذور هذه الشجرة في الأرض[٢٨]. وعليه يكون التقدير:

ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرةٍ طيبةٍ أصلها

ثابت في الأرض وفرعها عالٍ وصاعدٌ في السماء

وبهذا التقدير يظهر لنا دور الحذف التقابلي بالاحتباك في تحقيق التماسط والترابط النّصّي للآية الكريمة عن طريق إثارة الذهن في البحث عن المحذوف وتقديره ممّا ينتج عنها تكرار واضح بين الدليل المذكور وبين العنصر المحذوف، والمرجعيّة العائدة إلى المذكور، يلمس معها المتلقي ترابطاً واضحاً بين جمل النّصّ. فضلاً عن أن في في مجيء (ثابت) دلالة قوية بما توحيه الكلمة من معانٍ على قوة تلك الشجرة التي ضربت بعروقها في باطن الأرض حتى تثبت[٢٩]، وفي كلمة (السماء) أيضاً دلالة على المبالغة في بيان حال تلك الشجرة، فأن ارتفاع الأغصان يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق، وإنها متى كانت مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وكانت ثمرتها نقية[٣٠]، وهذان الوصفان (ثابت) و (فرعها في السماء) يزيدان الشجرة بهجةً وإيحاءً بالقوة والثبات[٣١].

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت:٥١) في هذه الآية يصور القرآن موقف الإنسان

من الخير والشر، فيرسم رسماً دقيقاً صادقاً لهذه النفس البشرية وخفاياها، يصور تقلبها، وضعفها، وحبها للخير، وجحودها للنعمة، واغترارها بالسراء، وجزعها من الضراء، فهذا الإنسان لا يسأم من دعاء الخير، فهو يلح فيه، يطلب الخير لنفسه ولا يمله، وإنْ مسَّه الشر فقد الأمل والرجاء، وتضرع ولم يملّ من الضراعة، فهو ذو دعاء عريض، وهكذا يصور القرآن النفس الإنسانية أي صورة، صورة ربٍ يعرف دروب مخلوقه إلى أن يهتدي.

ولم يذكر في الجملة الأولى من الآية (الخير)، وذكر في مقابله من الجملة الثانية (الشر)،إنما ذكر الأنعام أولاً وحذف من الثاني مقابله وهو (الابتلاء والانتقام)، فحذف من الأول والثاني على سبيل الاحتباك، فذكر الإنعام أولاً دليلاً على حذف ضده في الثاني وهو الابتلاء أو الانتقام، وذكر الشر ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً وهو (الخير)[٣٢]. وعلى هذا يكون تقدير الآية:

وإذا أنعمنا على الإنسان الخير اعرض ونأى بجانبه

فإذا ابتليناه أو انتقمنا منه بالشر فذو دعاء عريض

وجاء النظم الكريم بطريق الاحتباك لتعليم الإنسان الأدب مع الله بنسبة الخير إليه دون الشر، وإن كان الكل من عند الله، ولأن الخير مطلوب العباد ومرغوبهم إليه، أو لأنه أكثر وجوداً في العالم من الشر، ولأنه لا يحب في باب الأدب إلاّ يضاف إلى الله سبحانه، كما قال ﷺ: "الخير كله في يديك والشر ليس إليك"[٣٣]. وهذه طريقة القرآن في نسبة الخير إلى الله سبحانه دون الشر.

المبحث الثاني

الحذف التقابلي بالاحتباك المتشابه

نوعٌ آخر من أنواع الاحتباك البلاغي نحاول الوقوف على مفهومه من خلال التأمل في شواهده القرآنية الكريمة، وهو الذي يقع الحذف فيه بين ألفاظٍ

متشابهة، والشبه: المثل، فالكلمة نفسها التي تذكر في الجملة الأولى تحذف من الثانية، ومن الثانية الأولى نفسها، وأطلقنا عليه هذا الاسم من خلال الألفاظ المذكورة والمحذوفة التي دلَّ عليها كلام العلماء مثل قولهم: فحذف من الأول ما اثبت مثله في الثاني ومن الثاني ما اثبت مثله في الأول[٣٤]، وعلى هذا يمكننا القول بأن المتشابه أنْ يؤتى بجملتين في كلٍّ منهما متشابهان لما في الأخرى فيحذف من الأول لدلالة مثله عليه في الثاني ومن الثاني لدلالة مثله عليه في الأول ويكون ما بقي دليلاً على ما حذف في كلٍّ منهما، أي أنَّ الكلمة نفسها التي تحذف في الجملة الأولى تحذف في الثانية وبالعكس -، مثل (الجنة - الجنة)، (الحزن - الحزن) وغيرها من الألفاظ المشتركة في هذا النوع.

ويأتي هذا النوع بعد الاحتباك الضدي من حيث عدد شواهده، وفيه تظهر جمالية الإيجاز كما في الأنواع الأخرى، وسنتناول في هذا المطلب بعض الشواهد بالتحليل والدراسة، موضحاً مواضع الاحتباك في الآيات الكريمات، ومبيناً حسن موقعه وأثره، وجمالية نظمه وبلاغته في ما حذف وما بقي من الكلام.

ومن شواهده[٣٥] قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨). تعرض الآية الكريمة حال المشركين بعد انقطاع حبل حجَّتهم من السبب الذي دعاهم إلى تحريم ما أحلَّ الله لهم كالبحيرة والسائبة وغيرها، فعدلوا إلى قولهم بالمشيئة بأن الله لو شاء أن لا نشرك نحن ولا آباؤنا لما أشركنا ولما حرمنا هذه الأشياء، أما وقد شاء الله لنا ذلك فقد وقع منا[٣٦]. وذكر البقاعي أنَّ في الآية احتباكاً، والتقدير:

سيقول الذين أشركوا كذباً لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم فأشركوا وحرَّموا ما أحلَّ الله

إذ جاء إثبات الإشراك أولاً دليلاً على حذف مثله ثانياً، وإثبات التكذيب ثانياً دليلاً على حذف مثله أولاً[٣٧]. ومما يعضد هذا التقدير أنَّ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي كذَّبَ الذين من قبلهم أنبياءهم مثل ما كذلك هؤلاء، فشبه تكذيبهم بتكذيب المكذبين من قبلهم، وتدل على أنَّ الذين أشركوا قصدوا بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، تكذيب النبي ﷺ إذ دعاهم إلى الإقلاع عمَّا يعتقدون فكذلك الأمم قبلهم كذَّبوا رسلهم مستندين إلى هذه الشُّبَه، فسمى استدلالهم هذا تكذيباً، لأنهم ساقوه مساق التكذيب والإفحام[٣٨]. وتظهر بلاغة الاحتباك في تماسك النص القرآني في إخفاء التكذيب أولاً لإثباته لهم ثانياً، وحذف الإشراك ثانياً لإثباته لهم أولاً، فحصل بذلك إيجاز مع ملامسة للعقول المرهفة التي تتذوق المعاني بأقل الألفاظ. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ غاية للتكذيب قُصد منها دوامهم عليه حتى آخر وجودهم، فلما أتاهم بأس الله وذاقوه هلكوا، والذوق هنا مجاز استعمل بدلاً عن الإحساس والشعور، فهو من استعمال المقيد في المطلق، وإضافة البأس إلى ضمير الله سبحانه وتعالى لتعظيم أمر هذا البأس[٣٩].

ومن شواهده أيضاً قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٣٥). تتحدث هذه الآية عن اليهود والنصارى، وكيف أنَّ كل فرقة منهم تدعي أنَّها على الهدى، وأنَّه لا هدى لمن لا يتبع ملتها، وذكر العلماء أنَّ (أو) لتنويع المقال لا للتخيير، لأنَّ كلَّ واحد من الفريقين يكفر الآخر[٤٠]. فاليهود يكفرون النصارى، والنصارى تكفر اليهود، فليس المراد بأنكم إذا كنتم على أيٍّ الملتين فقد اهتديتم، بل أنَّ

اليهود قصرت الهدى باتباع اليهودية، وكذلك النصارى قصرت الهدى باتباع النصرانية. ويتضح من هذا أنَّ في الآية إيجازاً بالحذف على سبيل الاحتباك، وتقدير الآية الكريمة:

وقالت اليهود كونوا هوداً تهتدوا

وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا(٤١)

فحذف من الأول (تهتدوا) لدلالة مثله عليه في الثاني، ومن الثاني الفعل (كونوا) لدلالة مثله عليه في الأول. ومما يعضد هذا التقدير أنَّ (الواو) في (قالوا) عائدة على اليهود أولاً وعلى النصارى ثانياً، وتوزع القول عليهما، يقول ابن مسعود: "ليس هذا القول مقولاً لكلهم أو لأي طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزعٌ عليهما على وجه خاص تقتضيه حالهما اقتضاءً مغنياً عن التصريح به، أي قالت اليهود كونوا هوداً، والنصارى كونوا نصارى"(٤٢). وجمع سبحانه وتعالى القولين في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ لبيان أنَّ ملةَ الكفر واحدة، ولكي يوجه سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يواجههم بكلمةٍ واحدة ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤٣).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠)، وفي هذه الآية احتباك أيضاً كسابقتها، وتقدير الآية:

ولن ترضى عنك اليهود حتى تتبع ملتهم

ولا النصارى ترضى عنك حتى تتبع ملتهم

فحذف من الأول (تتبع ملتهم) لدلالة مثله عليه ثانياً، وحذف من الثاني (ولن ترضى عنك) لدلالة مثله عليه أولاً، وهذا في غاية الإيجاز والفصاحةِ ولا

يخفى، إذ إنَّ الاحتباك عمل على تقوية المعنى من خلال هذا الحذف وعدم تكرار الكلمة نفسها في الآية، ولبيان أنَّ ملة الكفر واحدة كما مرَّ. وأُثر استعمال النفي بـ (لن) في ﴿وَلَن تَرْضَى﴾ على غيرها من الأدوات، لأن النفي فيها يدل على المبالغة في التأييس، وذلك لأنها لنفي المستقبل. أي أنهم لن يرضوا عنك أبداً. ومعنى الغاية في ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، الكناية عن اليأس من إتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ، لأنهم كانوا لا يرضون إلا بإتِبَاعِ ملتهم فهم لا يتبعون ملته [٤٤].

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: ٦٥). اعتاد الكافرون على الكذب في الدنيا، وظنّوا أنهم يستطيعون أن يحققوا عن طريقه فوزاً ونفعاً، وهكذا جاءت الآية لتسد عليهم هذا الباب الذي اعتادوا أن يدخلوا ويخرجوا منه، ويوم القيامة يختم سبحانه وتعالى على أفواههم ويعقد ألسنتهم، وتترك الشهادة إلى غير اللسان من أعضاء جسمه، بعد أن رفض هذا الإنسان شهادة الناس والملائكة عليه، فتشهد عليهم أعضاؤهم على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم، وعلى غير ما كانوا ينتظرون، لأنهم كانوا عنها يدافعون ويكذبون في الدنيا، وبعدها تنقلب عليهم في الآخرة[٤٥].

وجاء التقابل في الآية بصورةٍ مختلفة في جانب الشاهدين، فلم يقل:(وتشهد أيديهم وأرجلهم)، ولا(تكلمنا أيديهم وأرجلهم)، مع أن كليهما يشهد ويتكلم ضدً صاحبه، ولكن جاء التقابل في الآية، بذكر الكلام مع الأيدي، والشهادة مع الأرجل، فحذف من كلٍّ ماأثبت في الأخرى، على سبيل الإيجاز بالاحتباك، فاثبت الكلام للأيدي أولاً دليلاً على حذفه من جانب الأرجل، واثبت الشهادة للأرجل ثانياً دليلاً على حذفها من جانب

الأيدي أولاً[٤٦]، وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة:

وتكلمنا أيديهم فتشهد

وتشهد أرجلهم فتتكلم

ولا تخفى ما لجمالية هذا الاحتباك فيتحقيق التماسك والترابط النصي للآية الكريمة. وتظهر بلاغة هذا الفن في نسبة الكلام للأيدي، والشهادة للأرجل، مع أنَّ الرِّجل تتكلم قبل اليد يوم القيامة كما ورد في الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ قوله: "وإنَّ أول ما يعرب عن أحدكم فخذه"[٤٧]، وقوله أيضاً ﷺ:"... ثم يجيئون يوم القيامة وعلى أفواههم الفدام[٤٨] وإنَّ أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه"[٤٩]. جاءت هذه النسبة وهذا الترتيب بهذه الصيغة، لانَّ اليد كانت هي المباشرة في أغلب الأعمال، أما الرجل فقد كانت حاضرة، ولهذا عبَّر في جانبها بالشهادة، وعلى هذا يكون كلام الفاعل المباشر في العمل إقرار، وكلام الحاضر شهادة، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾[٥٠]. أي أنَّ اليد هي الأصل في المباشرة، ولهذا يعلق الكسب دائماً باليد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾(الشورى:٣٠).

وثمة لطيفة في تقديم الاعتراف أو الكلام على الشهادة، وذلك لمناسبة الواقع فالعادة جرت بأن تسير الأمور في القضايا على وفق هذا النسق، الاعتراف أولاً، والشهود ثانياً، وهذا ما بينته الآية الكريمة، وكذلك قُدِّم لأنَّ دوره في هذه القضية أكثر فعالية وأبلغ دلالة من الشهادة وبخاصةً عندما يكون هناك توافق بين ما يدلي به المعترف وما يدلي به الشاهد.

وأسند سبحانه وتعالى الختم إلى نفسه في حين أسند الكلام والشهادة إلى الجوارح، لأنَّه لو أسندها إليه لكان هناك احتمال في أن يكون ذلك جبراً

وقهراً، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فنسبها إليها، فتشهد باختيارها لخالقها بعد ما يقدرها الله سبحانه وتعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم(٥١).

المبحث الثالث

الحذف التقابلي بالاحتباك المتناظر

نوعٌ آخر من أنواع الاحتباك، ولكنه يختلف عنه من حيث ان التشابه ليس تاماً بين المتقابلين بل في بعض الصفات بينهما، أي بينهما ألفاظ وصفات مشتركة، أي ان التشابه جزئياً في بعض الصفات وليس تشابهاً كلياً لفظاً ومعنىً، فعندما يقال: التقى وزير الدولة بنظيره وزير الدولة الأخرى، فهما ليسا الشخص نفسه بل هما مشتركان في صفةٍ هي إن كليهما وزير، وهذا الذي نعنيه بـ(التناظر)، وأفدنا من قول العلماء كالسيوطي للاحتباك في وضع اسمه وتعريفه، وهو قوله: "هو أن يحذف من الأول ما اثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما اثبت نظيره في الأول"(٥٢). وهذا النوع من الأنواع القليلة التي وردت في القرآن الكريم مقارنة بالنوعين السابقين، ويكون بين الأسماء والأسماء نحو (يوم الجمع - العذاب) وبين الأفعال والأفعال (تبتّل - بتّل)، وبين الأفعال والأسماء نحو (استغفره - غفاراً) وغيرها من الألفاظ المتناظرة.

ومن شواهده(٥٣) قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١) تعرض لنا هذه الآية حال الذين كفروا واتبعوا الغي بعد إذ جاءهم الهدى، فنكصوا على أعقابهم وكأنهم لا يسمعون ولا يبصرون، وفي هذه الآية من روعه التمثيل ما لا يصفه المداد. وهذا المثل مضروبٌ في تشبيه الداعي والكافر بالناعق والمنعوق به، وذكر أبو حيان "أن في الكلام حذفين: حذف من الأول، وهو حذف داعيهم،

وقد أثبت نظيره في الثاني، وحذف من الثاني، وهو حذف المنعوق به، وقد أثبت نظيره في الأول؛ فشبه داعي الكفار براعي الغنم في مخاطبته من لا يفهم عنه، وشبه الكفار بالغنم في كونهم لا يسمعون مما دعوا إليه إلا أصواتاً، ولا يعرفون ما وراءها. وفي هذا الوجه حذف كثير، إذ فيه حذف معطوفين، إذ التقدير الصناعي: ومثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الذي ينعق والمنعوق به"(٥٤)، وذكر أنهم قالوا: إنَّ العرب تستحسن ذلك، وهو من بديع كلامهم. ومن كلام أبو حيان هذا يحصل احتباك في الآية وتتشكل مفاصله فقد حذف من الأول ما دل عليه نظيره في الثاني، ومن الثاني ما دلَّ عليه نظيره في الأول، وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة:

مثلك يا محمد ﷺ ومثل الذين

كفروا كمثل الناعق والمنعوق به

فقد حذف اسم الرسول ﷺ من الأول لدلالة (الذي ينعق) عليه في الثاني، وحذف (المنعوق به) من الثاني لدلالة (الذين كفروا) عليه في الأول، وهذا من أجمل مواطن الحذف في القرآن الكريم لما له من دور في تحقيق الترابط والتماسك النصي، خصوصاً أنَّ النظم جاء محذوف الأول وهو اسم الرسول ﷺ أو ما يدل عليه، وذلك رفعاً لشأنه ﷺ بأن يقرن بهذا الذي ينعق بما لا يسمع(٥٥)، في حين إنَّ حذف(المنعوق به) ليس كلياً وإنما هناك لازمٌ من لوازمه، وهو قوله: (بما لا يسمع الادعاءً ونداءً)، حتى يعود هذا المعنى إلى الكفار، ويجللهم بالخزي والعار بتصويرهم بحال البهائم التي لا تعقل شيئاً ولا تعرف ما يراد بها، ففي هذا الحذف بلاغة وجمال، بحيث ترفع من شأن الرسول ﷺ بحذف ذكره ﷺ وتحط من شأن الكفار بذكرهم في هذا الموطن مقروناً بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً، وهذا غاية الإيجاز والبلاغة.

وذكر البقاعي في تفسيره قوله: "وفي ذكر هذين المثلين تقابل يفهم منه

مثلين آخرين فاقتضى ذلك تمثيلين في مثلٍ واحد، كأنَّ وفاء اللفظ الذي افهمه لهذا الإيجاز: مثل الذين كفروا ومثل داعيهم، كمثل الراعي وما يرعى من البهائم، وهو من أعلى خطاب فصحاء العرب، ومن لا يصل فهمه إلى جمع المثلين يقتصر تأويله بمثلٍ واحد فيقدر الكلام: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع....."[٥٦]. ولتحقيرهم وتصغير شأنهم، وصيانة اللسان عن ذكرهم، حذف المسند اليه في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، أي: هم صمٌ، رفع على الذم، لأنَّهم كالبهائم لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهمه ولا تعقله[٣].

ومن شواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

تعدّ هذه الآية من أهم الآيات التي بينت ورسمت الحقوق فيما بين الزوج والزوجة، فبين سبحانه وتعالى أنَّ للزوجة حقوقاً على الرجل، كما للرجل حقوقٌ على المرأة، ولكن هذه الحقوق حسب طبيعتهما، فالرجل عليه مسؤوليات تقتضيها طبيعة الرجل، والمرآة عليها حقوق تقتضيها طبيعتها، وفي معنى هذه الآية يقول الرسول ﷺ فيما أخرجه أهل السنن: ﴿أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ﴾[٥٧]. ولقد أنطوى جزءٌ من هذه الآية على حذف بالاحتباك وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فقد وقع حذفٌ من الطرفين

ودلَّ بالمذكور على المحذوف في كلٍّ منهما، فحذف من الأول (على الرجال) لدلالة نظيره عليه في الثاني وهو(عليهن)، وحذف من الثاني (للرجال) لدلالة نظيره عليه في الأول وهو (لهن)[٥٨]، وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة:

ولهن من الحقوق على ازواجهنَّ

مثل الذي لإزواجهن عليهن من الحقوق[٥٩]

ولا يخفى بلاغة ولطف الاحتباك في الآية وجماليته فيما بين الزوج والزوجة، فهذا كلام يشمل جميع ما يجب للنساء على الرجال من حسن المعاشرة وصيانتهن وإزاحة عللهن وكل ما يؤدي إلى مصالحهن، ويشمل ما يجب للرجال على النساء من طاعة الأزواج وحسن المشاركة في السراء والضراء والسعي إلى مرضاته وحفظ غيبتهم وصيانتهم عن خيانتهم[٦٠]. وفيه إيجاز وبيان لا يخفى على المتمكن من علوم البيان. ومثل هذا الإيجاز هو الذي تهتم به العربية وتسعى لتحقيقه فهو عنصر من عناصر بلاغة الكلام، لأنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر.

كما أنَّ هذا التركيب على طريقة الاحتباك بإضمار(الأزواج ومالهم) للاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال، وتشبيهه بما للرجال على النساء، لأنَّه كما هو معلوم أنَّ حقوق الرجال على النساء كثيرة ومشهورة، مُسَلَّمةٌ بها من أقدم العصور، أما حقوق المرأة فلم تكن موجودة، ولم يلتفت إليها، حتى إن وجدت فكان متهاونٌ بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتى جاء الإسلام فأقامها، وأعظم ما أسِّست به هو ما جمعته هذه الآية. وفي تقديم الظرف (لهن) في بداية الجملة، للاهتمام بالخبر، لأنَّه من الأخبار التي لا يتوقعها السامعون، فقدم ليصغي السامعون إلى المسند إليه، بخلاف ما أخر فقيل: ومثل الذي عليهن لهن بالمعروف. وفي هذا إعلان لحقوق النساء، وإصداعٌ وإشارةٌ بذكرها، ومثل ذلك من شأنه أن يتلقى بالاستغراب،

فلذلك كان محل الاهتمام[٦١].

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى:٧).

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلغة العرب، وذلك ليكون أقرب إلى الفهم والإدراك، ومن صفات هذا الكتاب، أنَّه فيه إنذار ووعيد، لأهل مكة ومن حولها، وللناس أجمعين، كذلك يحذر من عقاب الآخرة التي يجتمع فيها الإنس والجن للحساب.

ويلاحظ في الآية أنَّ الفعل (أنذر) من الأفعال التي تنصب مفعولين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ (النبأ: ٤٠)، في حين نرى في هذه الآية أن فعلي الإنذار نُزِّلاً بمنزلة المعدى إلى مفعولٍ واحد، فلم يذكر مع الفعل الأول (المنذر منه) وهو المفعول الثاني له، ولم يذكر مع الفعل الثاني (المنذر) الذي هو المفعول الأول له، فحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني وهو المفعول الثاني (العذاب)، وحذف من الثاني ما أثبت نظيره في الأول وهو المفعول الأول (المنذر)[٦٢]. وعلى هذا تكون الآية من الاحتباك، فقد ذكر المنذر أولاً وهو (أم القرى) دليلاً على إرادة (الناس) في الثاني، وذكر المنذر منه ثانياً وهو (يوم الجمع) دليلاً على حذف المنذر منه أولاً وهو (العذاب)[٦٣]. وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة:

لتنذر أم القرى ومن حولها العذاب

وتنذر الناس يوم الجمع لا ريب فيه

وبهذا النظم جاءت الآية في غاية الإيجاز والاختصار، وتظهر بلاغة هذا الفن، بعدم ذكر العذاب مع فعل الإنذار الأول، ليفيد التهويل والتعظيم منه وليبقى الذهن منشغلاً في التفكير بهذا العذاب وكيفيته، وليذهب به الخيال في

المحذوف كلَّ مذهب فيكون أهول، وحذف المنذر في الثاني لإيهام التعميم، كما أنَّ ذِكر هذين المذكورين وهما (أم القرى) و (يوم الجمع) أفخم وأوجل في النفس[٦٤]. وثمة بلاغة في تكرار فعل الإنذار، تتمثل في تحقيق المزيد من التهويل ليوم الجمع، لأنَّ تخصيصه بالذكر بعد عموم الإنذار يقتضي تهويله[٦٥]، ويفيد انتقال المخاطبين من هول إلى هول، ولإدخال الرعب في قلوبهم، وهذا ما أكدته نهاية الآية: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، باستحضار نتيجة الحساب العدل بأبهى صور المقابلة، ولتختار النفس البشرية فريقها الذي تريد، وتعمل جاهدة لتنال ذلك الانتماء[٦٦].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ (الكهف: ٢-٤). ولكن في هذه الآية ذكر المفعول الثاني مع فعل الإنذار الأول، وذكر المفعول الأول مع فعل الإنذار الثاني، وجاء النظم بالاحتباك إذ حذف المنذر أولاً لدلالة الثاني عليه، وحذف المنذر به لدلالة الأول عليه، وهذا من بديع الحذف وجليل الفصاحة[٦٧]. أي أنَّه حذف مع فعل الإنذار الأول المنذر وهم (الكافرون والمخالفون)، وحذف مع فعل الإنذار الثاني المنذر به وهو (العذاب) وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة:

لينذر الكافرين والمخالفين بأساً شديداً من لدنه

وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً عذاباً شديداً

وتظهر بلاغة الاحتباك في هذه الآية في عدم ذكر المنذر مع فعل الإنذار الأول، إيذاناً بأنَّ ما سيق له الكلام هو المفعول الثاني، وأنَّ الأول ظاهرٌ بقرينة ما بعده[٦٨]، وحذف لقصد التعميم - ليعم كُلَّ من يصح قبوله بالإنذار -، ثم كرر الإنذار وذكر الإنذار بخصوصه وحذف المنذر به لتقدم ذكره[٦٩]، وهذا في

غاية الإيجاز. ولا يخفى ما لجمالية الإطناب بذكر الخاص بعد العام، فبعد ذكر الإنذار العام في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً﴾، خصَّ الإنذار بقوله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾، وذلك لشناعة دعوى الولد لله سبحانه وتعالى.

المبحث الرابع

الحذف التقابلي بالاحتباك المنفي المثبت

الاحتباك المنفي المثبت نوعٌ آخر من أنواع الاحتباك يُبنى على تقابل الألفاظ بالنفي والإثبات أي أن يجتمع في الكلام متقابلان علاقتهما سلبية (النفي) - بين كلمتين ونفيهما - بإحدى أدوات النفي مثل (لا) أو(ما) وغيرهما، أو بمعنى آخر أن تكون كلمتان من الألفاظ المذكورة أو المحذوفة مثبتان والكلمتان اللتان تقابلهما منفيتان أو بالعكس، فيحذف من أول المتقابلين ما يدل عليه نفيه في الثاني، ومن ثانيهما ما يدل عليه نفيه في الأول، فيكون كلٌ من المذكور دالاً على المحذوف. وهو حاصل كما ذكرنا بين الألفاظ المثبتة والمنفية مثل (استكبر، لا يستكبر)، (يحزن، لا يحزن) وغيرها من الألفاظ المتقابلة بالنفي.

ومن شواهده[٧٠] قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣). جاءت هذه الآية استئنافاً ابتدائياً مسوقاً لتسلية النبي ﷺ من الحزن الذي يعتريه بسبب ما قاله الكفار وتكذيبهم لدعوته والإعراض عنها[٧١]. فأخبر الله سبحانه وتعالى بعدها أنّهم لا يكذبونه - فهم يعلمون أنّه صادق- ولكنهم بآيات الله يجحدون.

ويلاحظ في هذه الآية انه لم يصرح في الجملة الأولى بلفظ (الكذب) صراحة، ولكنه ذكر الحزن في (ليحزنك) وفي الجملة الثانية ذكر (الكذب) في (فإنهم لا يكذبونك) ولم يذكر الحزن فوقع حذف من الطرفين على سبيل الاحتباك. قال أبو حيان: "في الكلام حذف تقديره: فلا تحزن فإنهم..."[٧٢]،

وحذف من الجملة الأولى عائد الموصول أي الذي يقولونه وهو الكذب من انه عليه الصلاة والسلام ساحرٌ ومجنون وان ما أتى به أساطير الأولين[٧٣]. وقال البقاعي أن في الكلام احتباكاً إذ حذف من الجملة الأولى سبب الحزن وهو التكذيب لدلالة الثاني عليه وهو (لا يكذبونك)، وحذف من الثاني النهي عن المسبب وهو الحزن لدلالة الأول عليه وهو (ليحزنك)[٧٤]. وإذا جمعنا هذه الأقوال يكون تقدير الآية الكريمة:

قد نعلم أنه ليحزنك الكذب الذي يقولون

فلا تحزن فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين .....

وفي هذا الإيجاز تظهر بلاغة الاحتباك بعدم ذكر الكذب في الجملة الأولى وذلك إظهاراً لشرف النبي ﷺ وأدباً معه من ذكره في جانبه لأنه المنزه عنه، ولأن هذه الكلمة كانت من ابغض الكلمات إليه ﷺ[٧٥]. وفي قوله: (فإنهم لا يكذبونك)، تعليل لما يشعر به الكلام السابق من النهي عن الاعتداد بما قالوه، بطريقة التسلي بما يفيده من بلوغه ﷺ جلالة القدر ورفعة الشأن غاية ليس وراءها غاية، إذ إنَّه نفى تكذيبهم عنه ﷺ وأثبته لآياته على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ...﴾(الفتح: ١٠)، إيذانا بكمال قربه ﷺ، واضمحلال شؤونه في شأن الله سبحانه وتعالى، وفيه أيضاً استعظام لجنايتهم منبيء عن عظم عقوبتهم، فكأنه قال لا تحزن ولا تهتم بتكذيبهم فإنهم لا يكذبونك ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي ولكنهم بآيات الله يكذبون[٧٦]، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم في الظلم، ولبيان أن علة هذا الجحود هو الظلم[٧٧].

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(المائدة:٧٦). أنكر ﷻ بالأدلة النقلية والعقلية على من

اتخذ عيسى ابن مريم عليه السلام إلهاً من دونه عزّ وجل، فقد اثبت لهم بان هؤلاء لا يستطيعون دفع الضر عنكم ولا جلب النفع لكم، فهم لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم فكيف يدفعونه عن غيرهم، وإن عيسى عليه السلام وان كان ينفع الناس بإبرائه للأكمه والأبرص ولكنه كان بمشيئة الله -سبحانه وتعالى- وعلمه، وانه كان يوماً من الأيام في بطن أمه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، فأنكر الله-سبحانه وتعالى- عليهم هذه العبادة بدليل النقل والعقل، وأثبتها لنفسه لأنه وحده سبحانه من يملك الضر والنفع وهو السميع العليم(٧٨).

وقد قابل سبحانه وتعالى بين جملتين مختلفتين الأولى "من لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً" والثانية "والله هو السميع العليم"، فنفى في الأولى عن غيره أن يملك شيئاً من الضر والنفع، ولم يثبت ذلك لنفسه في الجملة الثانية، وإنما حذفها بدليل الأولى، واثبت سبحانه لنفسه (السمع والبصر)، وحذفها من الثانية، فلم يأت التقابل متشابهاً بين الجملتين فلم يقل في مقابل ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، (من يملك لكم ضرا ونفعاً)، ولا في مقابل (هو السميع العليم) (أتعبدون من دون الله من لا يسمع دعاءكم ولا يعلم حالكم. إنما جاء النظم الجليل بإيجاز بليغ بحذفٍ من الأول والثاني على سبيل الاحتباك، فـ "إن الله دل بما أثبته لنفسه على سبيل القصر على نفيه في الجملة الأولى عن غيره، وبما نفاه في الجملة الأولى عن غيره على إثباته له"(٧٩) وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة:

قل أتعبدون من دون الله من لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا يسمع دعاءكم ولا يعلم حالكم،

ولا تعبدون الله الذي يملك لكم الضر والنفع وهو السميع العليم.

وذكر النفع والضر في جانب النصارى الذين يشركون تعريضاً بهم،

وإشارة إلى سبب عبادتهم إياه أو عبادة غيره وهو اعتقادهم بأنه ينفع أو يضر ويملك ذلك بل يسمع ما يقولون، فأنكر الله سبحانه ذلك، مثبتاً لنفسه على سبيل القصر السمع والعلم. وقدم الضر على النفع، لأنَّ النفس الإنسانية أشد تطلعاً إلى دفع الضر من تطلعها إلى جلب الخير، فكان أعظم ما يدفعهم إلى عبادة غير الله هو أن تدفع هذه الآلهة الأضرار والشر عنهم[٨٠].

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (الليل: ١٤-١٨).

تتحدث هذه الآيات عن صنفين من الناس، صنف أثر الحياة الدنيا ونسي الآخرة، وكفر بالله وارتكب الموبقات والكبائر وأعرض عن المكرمات والطيبات، فكان أشقى الناس، وصنفٌ أثر الآخرة على الدنيا الفانية، ولم يترك باباً من الخير إلا ولج فيه، ولا باباً من أبواب الشر إلا وفر منه، وأعرض عنه وآمن بالله وعمل الصالحات وأمر بالمعروف وأتاه، ونهى عن المنكر وانتهى عنه، فكان أتقى الناس بحق.

وجاء نظم الآية بالحذف من الطرفين على سبيل الاحتباك، أي انه حذف من الأول (ولم يؤت ماله يتزكى) لدلالة وجوده في جانب الأتقى ثانياً، ومن الثاني (لم يكذب ولم يتولَّ) لدلالة الكذب والتولي عليه في جانب الاشقى أولاً[٨١]، وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة:

فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلاّ الاشقى الذي كذب وتولى ولم يؤت ماله يتزكى

وسيجنبها الأتقى الذي صدق ولم يكذب ولم يتول واتى ماله يتزكى.

وعبر ﷻ عن الذي يصلى هذه النار بـ (الاشقى) ولم يقل الشقي، وعن الذي سيجنبها ب (الأتقى) ولم يقل التقي، لأنه أراد وذكر الزمخشري - والله

اعلم - أن يوازن " بين حالتي عظيمٍ من المشركين، وعظيمٍ من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل الاشقى، وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل الأتقى وجعل مختصاً بالنجاة، وكأن الجنة لم تخلق إلا له"[٨٢]. وفي الآية جميل المقابلة بين (لا يصلاها إلاّ الأشقى) و(يتجنبها الأتقى)، والتي عملت بدورها على تعميق المفارقة بينهما.

المبحث الخامس

الحذف التقابلي بالاحتباك المشترك

هذا النوع يختلف عن الأنواع الأخرى من حيث إنَّه لا يلتزم بنوعٍ واحدٍ من الاحتباك بل يجمع نوعين في الآية الواحدة، فهو يشرك جميع الأنواع فيما بينها فيحذف من الأول ما يدل عليه نفيه في الثاني، ومن الثاني ما يدل عليه ضده في الأول، أو يحذف من الأول ما يدل عليه مثله في الثاني، ومن الثاني ما يدل عليه ضده في الأول، أو بين المتشابه والمتناظر... الخ، أو بالعكس، وأطلقنا على هذا النوع بـ(الاحتباك المشترك)، لأنَّه يجمع ويشرك جميع الأنواع الماضية تحت أثناءه (الضدي والمتشابه والمنفي والمتناظر) في الكلام الواحد، فتكون إحدى الألفاظ المذكورة ضدية والأخرى منفية أو متشابهة أو متناظرة، وبالعكس.

وسنعمد إلى اختيار نماذج منها للتحليل، ومن شواهده [٨٣]قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف:٥٨) تصور لنا الآية مثالاً للذي يستجيب للأيمان، وللذي لا يستجيب، فهو مثلٌ ضربه الله سبحانه وتعالى للمؤمن والكافر، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه مثلٌ للمؤمن، والذي خبث لا يخرج نباته إلا نكداً مثلٌ للكافر، وعن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال: هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن، يقول: هو طيبٌ كما البلد الطيب ثمره طيب، ثم ضرب مثل الكافر، كالبلدة السبِخة المالحة لا تخرج منها البركة، فالكافر هو

الخبيث وعمله خبيث[٨٤]. ويلاحظ في المقابلة بين الجملة الأولى والثانية، هناك محذوف في كلٍّ منها ما يدل عليه مذكور في الآخر، ففي الجملة الأولى حالٌ محذوفة للنبات وهي(وافياً طيباً)، وحذفت لفهم المعنى، ودلالة (نكداً) عليه ثانياً، أما في الجملة الثانية فحذف (النبات) لتقدم ذكره[٨٥]، وعلى هذا يكون تقدير الآية الكريمة:

والبلد الطيب يخرج نباته وافياً طيباً بإذن

ربه والذي خبث لا يخرج نباته إلا نكدا

وبهذا الحذف تعدُّ الآية من الاحتباك، أي بحذف (وافياً طيباً) من الأول لدلالة ضده عليه في الثاني(نكدا)، وحذف (نباته) من الثاني لدلالة (نباته) الأول عليه، وبهذا جمعت الآية بين نوعين من الاحتباك (الضدي والمتشابه). ومما يعضد هذا التقدير، أنَّ الآية جاءت لتقابل بين الأرضين وطبيعتهما، الأرض الطيبة التي يخرج نباتها طيباً، والأرض الخبيثة التي لا يخرج نباتها إلا نكدا. وثمة لطيفة في عدم ذكر حال النبات في الجملة الأولى بجانب البلد الطيب، بل ذكر سبحانه وتعالى أنَّه (بإذنه)؛ لأنَّ اقتران النبات بلفظ الجلالة لا يكون إلا وافياً حسناً طيباً، و"لأنَّ ما أذن الله في إخراجه لا يكون إلا على أحسن حال...، وخص الخروج بالنبات بقوله (بإذن ربه) على سبيل المدح له والتشريف، ونسبة الإسناد الشريفة الطيبة إليه تعالى وإن كان كلا النباتين يخرج بإذنه سبحانه"[٨٦].

كما أنَّ حذف (النبات) في الجملة الثانية، إشارة إلى أنَّ هذا النوع الذي ينبت في هذه الأرض الخبيثة لا يستحق أن يسمى نباتاً، لأنَّه يخرج نكدا، فيكون غير نافع، ولا يستفاد منه.

وخولف في التعبير بين المتقابلين، بقوله في الأولى (البلد الطيب)، والثانية بقوله (الذي خبث) دون الخبيث، وذلك للإيذان بأنَّ أصل الأرض تكون

طيبة حسنة منبتة وخلافه فهو عارض، فضلاً عما في هذا الأسلوب من الفصاحة والتفنن في الكلام[٨٧].

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤١). تصور الآية مشهداً من مشاهد الآخرة، وهو حال الكافرين في النار، وكيف أنَّها تحيط بهم من كلِّ جانب، وجاءت الآية على نهج الاحتباك بالحذف من الطرفين، فذكر في الجملة الأولى (جهنم) وحذف (الجهة)، وذكر في الجملة الثانية (الجهة) وحذف (جهنم)،" فذكر جهنم أولاً دليلاً على إرادتها ثانياً، وذكر الفوق ثانياً دليلاً على إرادة التحت أولاُ"[٨٨]، وعلى هذا يكون تقدير الآية:

لهم من جهنم مهادٌ من تحتهم

ومن فوقهم غواشٍ تغطيهم من جهنم

فحذف من الجملة الأولى (من تحتهم) لدلالة ضده عليه في الجملة الثانية وهو (من فوقهم)، وحذف من الثانية (جهنم) لدلالة مثله عليه في الجملة الأولى، فجمعت هذه الآية بين (الاحتباك الضدي والمتشابه). وتكمن بلاغة الاحتباك في هذا الإيجاز، الذي دفع التكرار في الآية، وصياغة العبارة الكثيرة المعاني بأقل الألفاظ.وممّا يعضد هذا القول أنَّ المهاد: هو ما يمهد (يفرش) على الأرض، والغواش: جمع غاشية، وهي كل ما يغطي الشيء كغاشية السرج فهي تغشي الإنسان، وتغطيه كاللحاف[٨٩]، وقال الطبري أيضاً: "وإنما معنى الكلام: لهم من جهنم مهادٌ، من تحتهم فرشٌ، ومن فوقهم منها لحفٌ"[٩٠].

وجاءت هذه الآية تمثيلاً لحال الكافرين في نار جهنم وشدة عذابهم فيها،لأن الإحاطة كناية عن عدم الراحة في جهنم، فإنَّ الإنسان يحتاج إلى المهاد والغواش عند اضطجاعه وجلوسه للراحة، فإذا كان مهادهم وغاشيتهم

من النار، فقد انتفت راحتهم[٩١]. ولا يخفى ما في الآية من الاستهزاء والتهكم بالكافرين وحالهم فيها.

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

تدبر القرآن يشرح الصدر، وينير القلب، ويزيل الغشاوة التي عليه، وهذا التدبر يدخل الإنسان في عالم الإيمان، وبه يهتدي إلى الحق، كيف لا وهو كتاب رب العالمين، الذي به تنبض وتستنير الحياة، وعلى خلافه من يعرض عنه ولا يتدبره فسيحول بينه وبين سعادته كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه / ١٢٣)، ويضرب على قلبه قفلٌ كما ذكر في الآية، وجاء التقابل في الآية بذكر الاستفهام عن التدبر للقران في الأول وحذف نتيجة هذا التدبر (الانشراح والسعادة)، وذكر في الثاني سبب عدم التدبر وهو وجود الأقفال، وحذف المسبب (التدبر). فالآية من الاحتباك حيث ذكر التدبر أولاً دليلاً على نفيه ثانياً، والأقفال ثانياً دليلاً على حذف ضدها في الأول، ولما كان الاستفهام إنكارياً كان معناه النفي، وهو داخل على النفي، ونفي النفي إثبات[٩٢]، وعلى هذا يكون تقدير الآية:

أفلا يتدبرون القرآن فتنشرح قلوبهم وتسعد

نفوسهم أم على قلوبٍ أقفالها فلا يتدبرونه

وسر هذا الحذف أنَّه ذكر على جهة الإيجاز والاختصار تدبر القرآن الجالب للخير والحياة السعيدة في الدنيا والآخرة، وذكر انغلاق قلوبهم عن الهدى الذي هو سبب الشر الجامع للشقاوة في الدارين[٩٣].وفي تنكير (قلوب) وإضافتها إلى الأقفال لطيفة أشار إليها الزمخشري بقوله: "فإن قلت: لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قلت: أما التنكير ففيه وجهان: أن يراد قلوب

قاسية مبهم أمرهم في ذلك، أو يراد على بعض القلوب وهي قلوب المنافقين، وأما إضافة الأقفال فلا يريد الأقفال المختصة بها هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح"[٩٤].

الخاتمة:

يطيب لي وقد وصل إلى نهايته أنْ أُوجز أهمّ نتائجه، ومنها:

- حاول هذا البحث إظهار بلاغة الحذف التقابلي بالاحتباك ودوره في التماسك النصي والهدف الذي يرمي إليه في الكلام، منطلقاً من أنَّ القيم البلاغية للحذف تكمن من مسوغاته التي اقتضت استخدام هذا الاسلوب دون سواه.
- من خلال عرض الآيات وكلام العلماء عليها تبين لنا ان الاحتباك ينحسر - حسب فهمنا واجتهادنا - في خمسة أقسام (الضدي -المتشابه - المتناظر- المنفي - المشترك).
- أظهر البحث دقة أسلوب القران الكريم في حذفه كل ما لا ينسجم مع المقام في خطاب الله سبحانه وتعالى، من صفاتٍ وأفعالٍ تأدباً معه سبحانه وتعالى في عدم نسبة الشر إليه سبحانه وتعالى، وتوخياً في نسبة كل ما هو خير إليه عزّ وجل.
- ركّز البحث على تسجيل فائدة الحذف المتمثّلة في إفادة الإطلاق والشمول في كثيرٍ من المواضع في التعبير القرآني.
- أثبت البحث اسهام الحذف التقابلي بالاحتباك في تماسك النص عند وجود الدليل عليه، حيث نستطيع ربط البنية السطحية بالبنية العميقة.
- حاول البحث إثبات دور الحذف التقابلي بالاحتباك في تحقيق الترابط

النّصّي من خلال إثارة الذهن في البحث عن المحذوف وتقديره ومن ثمّ وضوح المعنى وما يترتب عليه.

كانت هذه النتائج بعض ما خرجت به مما يتسع به المقام هنا، غير أنَّا قد توصلنا من خلال تحليل الآيات القرآنية إلى نتيجة كلية توصل إليها القدماء وأكدها كل من جاء بعدهم، ألا وهي: وحدة وتماسك النص القرآني كليا.

وختاماً أرجو أن أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على (الحذف التقابلي بالإحتباك) في القران الكريم ودوره في تحقيق التماسك النّصّي على طريقة أهل البلاغة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد ﷺ وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

هوامش البحث

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: ١٩.
(٢) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: ٣/ ٢٩٧، مادة حبك.
(٣) الحجزة: موضع شد الإزار، لسان العرب، ابن منظور: ٣٣٢/٥، مادة حجز.
(٤) لسان العرب: ٤٠٧/١٠، مادة حبك.
(٥) البرهان في علوم القرآن: ١٢٩/٣.
(٦) التعريفات:٢٥.
(٧) نظم الدرر: ٢٦٣/٤.
(٨) الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٢٠٤.
(٩) ينظر: تماسك النص الأسس والأهداف، د. حسن محمد عبد المقصود: ٣.
(١٠) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين أبن هشام: ٧٨٦/١.
(١١) ينظر: النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز: ١٢٧.
(١٢) الإتقان في علوم القران، السيوطي:١٥٣/٢.
(١٣) ينظر: خصائص التراكيب، محمد أبو موسى: ١١٨.
(١٤) الإتقان في علوم القرآن: ٣ / ٢٠٥ -٢٠٦ .
(١٥) النّصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند: ٣٤.
(١٦) ينظر: علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي: ٢ / ٢٠٠- ٢٠١.
(١٧) ينظر: النّصّ والخطاب والإجراء: ٣٤٢، و الحذف ودوره في التماسك النصّي(Ellipsis)، إبراهيم محمد عبد الله مفتاح، http://www.ta5atub.com/t553-topic: ٢.
(١٨) إصلاح المنطق: ٢٨.
(١٩) ينظر على سبيل المثال أيضاً: (ال عمران:٣٠) و(النساء:٧٤) و(إبراهيم: ٢٤) و(طه:٢٢)، و(يس:٧٠) وغيرها.
(٢٠) الأغمار: "الأغمار جمع غمر بالضم وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور" لسان العرب:٣٢/٥.
(٢١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ١٥٠/١.
(٢٢) البحر المحيط: ٤١١/٢.
(٢٣) ينظر: التحبير في علم التفسير، السيوطي: ٤٧٤.
(٢٤) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٣٤٢/١.
(٢٥) ينظر: البحر المحيط: ٩٣/٧.

(٢٦) ينظر: (الجرس والإيقاع في التعبير القرآني)، كاصد الزيدي، آداب الرافدين، ع٩، س ١٩٧٨: ٣٣٥.

(٢٧) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١٠٢٨.

(٢٨) ينظر: نظم الدرر: ٤١١/١٠.

(٢٩) ينظر: الكشاف: ٥٥١.

(٣٠) ينظر: التفسير الكبير: ١١٩/١٩.

(٣١) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٠٩٩/٤.

(٣٢) ينظر: نظم الدرر: ٢٢٢/١٧.

(٣٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم ٧٧١: ٥٣٥/١.

(٣٤) ينظر: نظم الدرر: ٣٢٢/٨.

(٣٥) ينظر على سبيل المثال أيضاً: (البقرة:٢٩) و(ال عمران:١٢٢) و(**سبأ**:٣) و(القمر:٤٣) و(الجن:٥) وغيرها.

(٣٦) ينظر: الكشاف: ٣٥١.

(٣٧) ينظر: نظم الدرر: ٢٧٨/٧.

(٣٨) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٤٨/٨.

(٣٩) ينظر: المصدر نفسه: ٧٣٦/١.

(٤٠) ينظر: روح المعاني: ٨٦/١.

(٤١) ينظر: صفوة التفاسير، الصابوني: ٨٦/١.

(٤٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود العمادي: ٢٠٤/١.

(٤٣) ينظر: في ظلال القرآن: ١١٧/١.

(٤٤) التحرير والتنوير: ٦٩٣/١.

(٤٥) ينظر: التفسير الكبير: ١٠١/٢٦ - ١٠٢.

(٤٦) ينظر: نظم الدرر: ١٥٧/١٦.

(٤٧) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين تفسير سورة السجدة، حديث رقم (٣٦٤٦): ٤٧٨/٢.

(٤٨) الفدام: مصفاة الكوز والإبريق ونحوه،وهو ما يوضع في فم الإبريق،وهو شيء تشده العجم على أفواهها عند السقي أيضاً، ينظر: لسان العرب: ١٢/ ٤٥٠، مادة (فدم).

(٤٩) المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة السجدة، حديث رقم (٣٦٤٥): ٤٧٧/٢.

(٥٠) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣٤/١٥.

(٥١) التفسير الكبير: ٢٦/ ١٠١-١٠٢.

(٥٢) الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٢٠٤.
(٥٣) ينظر على سبيل المثال أيضاً: (البقرة:٢٦٤) و(ال عمران: ٢) و(يس:٢٢) و(نوح:٣٦) و(النصر:٣) وغيرها.
(٥٤) البحر المحيط: ٦٥٧/١ .
(٥٥) ينظر: نظم الدرر: ٣٣٢/٢، ومن بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي: ١٢٤.
(٥٦) نظم الدرر: ٣٣٢/٢.
(٥٧) سنن الترمذي، كتاب الرضاع. باب ما جاء في حق الزوجة على زوجها، حديث رقم (١١٦٣): ٤٦٧/٢.
(٥٨) ينظر: البحر المحيط: ٢٠٠/٢،ونظم الدرر: ٣/ ٣٠١، والتحرير والتنوير: ٣٩٦/٢.
(٥٩) ينظر: جامع البيان: ٥٤٣/٢.
(٦٠) ينظر: (الإيجاز في العربية)، امال الزين، على شبكة الانترنت، موقع موجات.www.mogat.com
(٦١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٩٦/٢ - ٣٩٧.
(٦٢) ينظر: روح المعاني: ٣٢/١٥.
(٦٣) ينظر: نظم الدرر: ٢٥٠/١٧، وصفوة التفاسير: ٣٥٩/٣.
(٦٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٩/٦.
(٦٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٧/٢٥.
(٦٦) ينظر: سور الحواميم دراسة بلاغية تحليلية عبد القادر عبد الله فتحي الحمداني، أطروحة دكتوراه، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الموصل، بإشراف: د.احمد فتحي رمضان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ٥٦.
(٦٧) البحر المحيط: ٦/ ٩٤، وروح المعاني: ٢٠٣/١٥.
(٦٨) ينظر: روح المعاني: ٢٠٢/١٥.
(٦٩) ينظر: نظم الدرر: ٦/١٢.
(٧٠) ينظر على سبيل المثال أيضاً: (البقرة:٢١٦) و(المائدة:٧٦) و(الأنعام:٣٣) و(فصلت:٣٨) و(الليل:١٤-١٨) وغيرها.
(٧١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٧٤.
(٧٢) البحر المحيط: ١١٦/٤.
(٧٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣٧٥/٢.
(٧٤) ينظر: نظم الدرر ٩٦/٧.
(٧٥) ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(٧٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣٧٥/٢.
(٧٧) ينظر: البحر المحيط: ١١٦/٤.
(٧٨) ينظر: المصدر نفسه: ٥٤٦/٣.
(٧٩) نظم الدرر: ٧٧/٦.
(٨٠) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨٩/٧ .
(٨١) ينظر: نظم الدرر: ٩٥/٢٢ .
(٨٢) ينظر: الكشاف: ١٢٠٧.
(٨٣) ينظر على سبيل المثال أيضاً: (ال عمران:١٢٨) و(المائدة: ٤١)، و(النحل:٦٧) و(سبأ:٢٠) و(النجم:٣١) وغيرها.
(٨٤) جامع البيان: ٨/ ٢٤٩.
(٨٥) ينظر: الكشاف: ٢/ ٨٣، البحر المحيط: ٤ / ٣٢٢.
(٨٦) البحر المحيط: ٤/ ٣٢٢.
(٨٧) ينظر: البحر المحيط: ٤/ ٣٢٢، وروح المعاني: ٨ / ١٤٧.
(٨٨) نظم الدرر:٧/ ٤٠٠.
(٨٩) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الاصفهاني:٦٠٧ .
(٩٠) جامع البيان: ٨ / ٢١٥.
(٩١) ينظر: التحرير والتنوير: ٨ / ١٢٩.
(٩٢) نظم الدرر: ٢٤٣/١٨-٢٤٥.
(٩٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٥/١٨.
(٩٤) الكشاف: ١٠٢١.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً. الكتب:

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد السيوطي (٩١١هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن علي مصطفى العمادي (ت٩٨٢ هـ)، ت: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩-١٤١٩.

- إصلاح المنطق، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السكيت (ت٢٤٤ هـ)، ت: احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون،دار المعارف،القاهرة،ط١٩٤٩،٤م.

- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني الشافعي (المتوفى: ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل - بيروت، الطبعة: الثالثة، (د - ت).

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٢٠،١ هـ - ١٩٩٩م.

- البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الاندلسي(ت ٧٤٥هـ)، ت: عادل عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢ هـ -٢٠٠١م.

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي وشركاءه، ط٢، د-ت.

- التحبير في علم التفسير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد السيوطي (ت٩١١)، ت: زهير عثمان علي، مطبوعات إدارة الشؤون الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنور العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن عاشور(ت١٩٧٢ هـ)، الدار التونسية، الدار الجماهيرية، د-ت.

- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت٨١٦هـ)، ت: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠م.

- التفسير الكبير، فخر الدين محمد عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ت: محمود شاكر، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ -٢٠٠١م.

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي(ت٦٧١ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

- الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني (ت٣٩٢ هـ)، ت: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٤، ١٩٩٠م.

- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، دار التضامن، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠ هـ -١٩٨٠م.

- دلائل الإعجاز (في علم المعاني) أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١ هـ)، ت: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الالوسي أبو الفضل (ت١٢٧٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د-ت.

- سنن الترمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى الترمذي السلمي (ت٢٧٩ هـ)، ت: احمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د-ت.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، ت: محمد عبد الفؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.

- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

- في ظلال القران،سيد قطب، دار الشروق، ط٨، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزابادي(ت٨١٧ هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨ هـ)، اعتنى به وخرج أحاديثه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٢م.

- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الفريقي (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ -١٩٩٤م.

- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري(ت٤٠٥ هـ)، ت:مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، جمال الدين أبو محمد عبدا لله بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت٧٦١ هـ)، ت: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط٦، ١٩٨٥م.

- مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني(ت٤٢٥هـ)،ت: صفوان عدنان داؤودي دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، د-ت.

- من بلاغة القرآن،د.احمد احمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، د-ت.

- النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٣٩٠ هـ-١٩٧٠م.

- النّصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة د.تمّام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ،١٩٩٨م.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٥٥هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩م.

ثانياً.الرسائل الجامعية

- سور الحواميم دراسة بلاغية تحليلية، عبد القادر عبد الله فتحي الحمداني، أطروحة دكتوراه، مقدمة إلى كلية الآداب- جامعة الموصل، بإشراف: د.احمد فتحي رمضان، ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣م.

ثالثاً. البحوث:

- الإيجاز في اللغة العربية، آمال الزين، شبكة الانترنيت، موقع موجات: (www.magat.com).

- تماسك النص الأسس والأهداف، د. حسن محمد عبد المقصود، شبكة الانترنيت، منتديات تخاطب: (http://www.ta5atub.com/t3750-topic)

- الجرس والإيقاع في القصة القرآنية، كاصد الزيدي، مجلة آداب الرافدين-جامعة الموصل، عدد ٩، ١٩٧٨م.

- الحذف ودوره في التماسك النصّي(Ellipsis)، إبراهيم محمد عبد الله مفتاح، شبكة الانترنت، منتديات تخاطب: (http://www.ta5atub.com/t553-topic)